الاستشراق الاستعماري وصورة العربي المشوهة

محمـد عبيـدو

منذ قرون عديدة رسم الغرب صورة ذهنية معنوية سيئة عن العرب، محكومة بنمطية ثابتة، جامدة، لاتاريخية، ولامتبدلة، كانت نتيجة أساسية من نتائج الحروب الصليبية ومارافقتها من صراعات دموية زادت الحقد في النفوس. ثم أسهم في ابراز خطوطها، حالة الصراع الدائم بين العرب والغرب من خلال السيطرة الاستعمارية الغربية، حيث شهدت المنطقة العربية

محمد عبيدو: صحفي وكاتب من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والسياسية

ثورات عدة ضد المستعمرين الغربيين، أدت في مرحلة من المراحل إلى إجبارهم على حمل عصيّهم على كواهلهم والرحيل عن هذه الأرض كاظمي الغيظ .

ثم استعرت حركة الصراع الوجودي بين العرب والصهاينة في المنطقة فزادت بمداخلاتها الغربية الاستعمارية الحديثة، وبالحرب النفسية والدعائية الصهيونية ضد العرب من قتامة صورة «العربي» في ذهنية الغرب .

فقد استطاعت الدعاية الصهيونية بفضل العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية والدولية بالإضافة إلى الظروف المحلية في المنطقة أن تبث صورة مشوهة عن العرب من حيث خصائصهم ونظمهم ومعتقداتهم، مما أدى في نهاية الأمر الى إيجاد صورة نمطية عربية في أذهان مستقبل الرسالة الدعائية تتسم بالتشويه والكذب ولكن تكرار مرتكزات المنطق الدعائي وتلقينه أدى إلى رسوخها في ذهن المستقبل الأجنبي وخاصة الغربي .

وبالإضافة لعوامل عديدة ساعدت على ماتقدم ترجع الى الميراث التاريخي الخاص بالحروب الصليبية والعصر الاستعماري والكتابات الغربية المشوهة . . فهناك وجود الهوة الاعلامية بين العرب والغرب وأثر الوجود الصهيوني في دول العالم من حيث وجود الجاليات اليهودية واتصال هذه الجاليات بمركز الثقل السياسي عن طريق صناعة القرارات مما شوه الصورة النمطية العربية . .

ومنذ قرون عديدة والحكايات والأخيلة والأشباح تتعاقب على المشهد الذهني الأوروبي، عن العربي الممسوخ المستبد والمتآمر والبربري المتعطش للدماء . وكما كتب المفكر التونسي هشام جعيط : «الأحكام المسبقة المضادة للعرب والاسلام تجذرت في اللاشعور الجماعي للغربيين عند مستوى هو من العمق، بحيث نخشى ألاّ يتمكن أحد من استئصالها ذات يوم أبداً» فلا العقل ولا التجربة الذاتية الملموسة يستطيعان ضدها شيئاً» .

منذ بدء الاستشراق، ظل الشرق مسرحاً مغلقاً يجسد فيه الممثلون والكومبارس مجموعة من الرموز والصور النمطية لدى الجمهور والمؤلف..

فالمستشرق يتملكه شعور لايتزحزح بتفوق ثقافته الاصلية هذا الشعور الذي تحوّل الى قناعة قام بتحليلها كل من أنور عبد الملك في كتابه «الاشتراق في أزمة» وادوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» في محاولة منهما للقراءة في الأسباب التي دفعت الكثير من المستشرقين للنظر الى الثقافة التي يدرسونها بتعال واحتقار. لنرى أن هذه «القناعة» تذهب إلى حد العداء السافر..

يذكر ادوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» حادثة مهمة للغاية وذلك بقدر ماتشير إلى حالات مماثلة، أو ربما حالات أكثر تعقيداً وخطورة، يقول: كان الزي المخصص لحفل «لمّ الشمل» في جامعة برنستون عام ١٩٦٧م قد صمم قبل حرب حزيران، على أن يكون عربياً، وهو ثوب ولباس رأس وصندل، وبعد الحرب مباشرة صدر مرسوم بتغيير الخطط الموضوعة، وقضت الخطة الجديدة بأن يسير الخريجون المحتفى بهم وهم يرتدون الزيّ، كما كان مقرراً في الأصل، في موكب رافعين أيديهم فوق رؤوسهم بحركة تعبر عن الهزيمة.

ستتغير الصورة بعد ذلك بعدة سنوات ففي العام ١٩٧٣ برزت بانتظام رسوم ورقية تصور شيخاً عربياً يقف وراء مضخة بنزين، لكن هؤلاء العرب كانوا بخلاء (ساميين) وكانت أنوفهم المعقوفة والنظرات الشذراء الخبيثة تذكيراً واضحاً لجمهور غير سامي في معظمه، بأن الساميين كانوا يقبعون تحت كل مشكلاتنا ومصاعبنا، والصورة التي تقدم عن العربي يمكن اختزالها إلى كونه (عقبة) تم تجاوزها لخلق «اسرائيل» عام ١٩٤٨، وأن تاريخه - إن كان له تاريخ - ممنوح له من قبل التراث الاستشراقي.

إن العربي كما يظهر في السينما الأمريكية هو كما ينقل أدوارد سعيد خرفياً.

سادي، خؤون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صرّاف، وغد، متعدد الظلال.

ويكتب «ايميت تيرل» في مجلة «هاربر» الأمريكية:

«إن العرب أساساً قتلة، والعنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية».

إن المرء ليتساءل وهو يقرأ الصورة المبثوثة للعربي في المرجعيات الامريكية: إيهما يتأثر بالآخر، الأدب والفكر الصهيونيان أم هذا الاستشراق الوليد كصنو مؤسسة وضعت التوسع ومرونة الحدود والهيمنة في مقدمة استراتيجيتها.

مستحضرين صورة العربي على الشاشة من خلال مخيلتهم الجمعية، يقوم الامريكيون بتقديمها على أن صاحبها العربي يقوم بأعمال شنيعه ويتلقى في النهاية العقوبات الفظيعة.

والسينما الامريكية قد زاوجت منذ ولادتها منذ قرن مضى بين أفلامها وبين صورة العربي المشوهة التي خلقتها مخيلتها.. ومن هنا يمكن أن نقول إنّ النظرة السينمائية الغربية عموماً والامريكية خصوصاً للعربي كانت على الدوام نظرة عنصرية - مع وجود إستثناءات قليلة جداً - فالعربي في تلك الأفلام هو البدوي الذي يركب الجمال، يتنقل من مكان لآخر لايتشبث بأرض أو وطن ولايعرف الزراعة والاستقرار.. انسان انتهازي مصلحي لايتورع عن الغش والخيانة والقتل من أجل مكاسبه الشخصية.. إلى آخر ماهنالك من الصفات الوضيعة التي طغت على صورة الهندي الأحمر والافريقي الأسود والآسيوي الأصفر في الأعمال السينمائية التي دارت في الغرب الامريكي أو القارتين الاسيوية والافريقية.

في مقابلة مع رويتر قال جاك شاهين استاذ الاعلام في جامعة ايلينوي الجنوبية، ومؤلف كتاب (العربي في التلفزيون الامريكي): إنه منذ الأيام

الأولى لصناعة السينما تركزت سيناريوهات الأفلام عن العرب على (الشيخ الثري الفاسد المخادع المعقوف الأنف الغارق في الملذات) وأشار شاهين إلى فيلم (الشيخ) الذي تم انتاجه في عام ١٩٢١ بطولة رودولف فالنتينو وكان يقوم على فكرة مازالت تتكرر في أفلام حتى الآن وهي أن العرب يعيشون في الصحراء ويركبون الجمال ويتقاتلون فيما بينهم ويشترون النساء من أسواق الرقيق.

وتتهم أفلام حديثة الشيوخ باستغلال ثروات النفط الضخمة للإضرار باقتصاد الولايات المتحدة والتأثير على سياستها الخارجية. ويضيف شاهين قائلاً إنه في السبعينات والثمانينات ظهر إلى جانب نموذج (الشيخ) نمط آخر هو «الارهابي» الذي يصور الفلسطيني على أنه قاتل مجرد من الانسانية يوجه ارهابه إلى الأوروبيين والامريكيين والصهاينة. وقال شاهين إن هذه الأنماط منتشرة في السينما لدرجة أنه وجد صعوبة في إلتقاط عشر مواصفات ايجابية للعربي في أكثر من ٤٥٠ فيلماً قام بتحليلها.

وذكر شاهين ان التلفزيون الامريكي لايختلف عن السينما. حيث أن حلقة من مسلسل تلفزيوني كان يعرض في الآونة الأخيرة أظهرت شيخين يحاربان بعضهما في الصحراء

عرف المشاهدون من الحلقة أن العرب يعيشون في خيام ويرتدون ملابس فضفاضة وسراويل منتفخة. . وأضاف شاهين يقول: إنه عندما تتعرض المسلسلات للعرب فإنها تصور شيوخاً يأخذون رهائن أمريكيين ويقتلون مواطنيهم العرب ولهم حريم ويضطهدون النساء ويسيل لعابهم على الشقراوات الغربيات وقال شاهين: نحن في الولايات المتحدة وأعتقد في معظم أنحاء أوروبا نشأنا على قبول وتصديق هذه الصور لأنها الوحيدة التي تم عرضها وسيناريوهات الشاشة مرجع مرئي.

إن هذه المراجع المرئية تتجاهل الغالبية الكبرى من العرب التي لم يركب واحد منهم جملاً في حياته أو نام في خيمة أو امتلك بئراً للنفط أو قام بعمل ارهابي.

وللتدليل على قوة تأثير هذه الأنماط التي تبرزها السينما والتلفزيون عن العرب تضمن بحث قام به شاهين مسحاً سأل فيه ٢٩٣ مدرساً بالتعليم الثانوي في مختلف الولايات المتحدة الأمريكية أن يذكروا اسم بطل عربي شاهدوه في السينما أو التلفزيون فأجاب كلهم عدا ستة أنه لايوجد.

ويقوم جاك شاهين في كتابه «العربي في التلفزيون» بتحليل عدد كبير من المسلسلات والبرامج التلفزيونية التي تحاول الاساءة للعرب وتشويه صورتهم، هذه البرامج التي لاتعرض في الولايات المتحدة الاميريكية فحسب وإنما في العالم كله أيضاً، بما في ذلك العالم العربي أحياناً.

ومن هذه المسلسلات «فيغاس» «من المجرم» «الفتيات الأمريكيات» «اليانصيب» «ماكلود» «المرأة الشرطية» «ملفات روكفورد» «طرزان» «مساء في بيزنطة».

إن صورة العربي في الأفلام الامريكية هي تجسيد للفكر الاستعماري. . وهذه الأفلام تصور فكرة التغلغل الاستعماري كما وصفها ادوارد سعيد في «الاستشراق» على المستوى الجمعي تسلل الأوروبيين في الشرق الأوسط. . حتى داخل الأماكن المحظورة، كالمعابد والأضرحة والحريم؛ وعلى المستوى الفردي، يحظر على العربي «الخطير» المشرع المدى و«الشبق جنسياً» التغلغل وبدلاً من هذا يجري التغلغل إلى داخله فهو المصاب بعيار ناري أو مطعون بمدية أو بسيف يدخل من طرف إلى آخر في جسده. . أما المرأة العربية فيتم اغراؤها بسهولة. . وأضيفت الى هذه صورة العربي الارهابي والعربي الجالس على بئرنفط. . هكذا تصور أفلام أمريكا منذ مطلع القرن العرب وتشوه صورتهم أمام الرأي العام الأمريكي والعالمي.

نظرة عنصرية واضحة تعطي العربي دوماً صورة مكروهة، وفي أحسن الحالات يكون مجرد خلفية فلكلورية لأحداث يلعبها الأوروبي أو الامريكي الابيض النظيف الوسيم والمثقف الحضاري(!!) ولاأريد في هذه

العجالة - بل لاأستطيع - أن أتكلم عن جميع الأفلام من هذا النوع التي خرجت من هوليود - بصورة رئيسية - ومن السينما الغربية بشكل عام . . ولكنني أكتفي بالتحدث عن بعضها لإعطاء القارئ نماذج عنها . .

فيلم «الجنة» : في فيلم «الجنة» قامت الصهيونية متمثلة بالمخرج ستيورات كلنارد باقتباس القصة الخيالية (روبنسون كروزو) ولكن بمسحة توراتية . . فهو قد أخذ الحدث الدرامي والذي يفرض على روبنسون كروزو العيش في جزيرة دون أي اتصال بالآخرين . على هذا الحدث قام كاتب السيناريو ستيورات كلنارد ببناء فيلم أراد فيه أن يكون مسيئاً بشكل مباشر للشخصية العربية وتقديم اليهود بشكل حضاري غير مباشر . في هذا الفيلم لم يكن عدو (روبنسون كروزو) البحر ولاالعاصفة وانما كان الأمير العربي المزعوم (عزيز) الذي يطارد ديفيد وسارة في هذه الصحراء القاسية . .

وقد اعتمد الفيلم في بنائه على مستويين ، المستوى الأول تلك العلاقة بين كل من ديفيد وسارة التي بدأت بنظرة اعجاب لمعارضته معاملة الفتا الهندية بشكل سيء وتطورت هذه العلاقة من خلال الظروف المتشابهة التي عاشها كل منهما من حيث وحدة الحال ووحدة المصير والمواجهة ، وتطورت إلى حب عميق وساعدهم على الاستمرار في طريقهم الصعب والطويل . . والمستوى الثاني هو تلك المطاردات المتكررة والمتشابهة والتي قصد المخرج منها التأكيد على الصورة البشعة للانسان العربي وخلق حالة من التوتر والكراهية عند المشاهد لهذا النموذج . . كما قدم الفرد العربي على أساس أنه فاجر وماجن فهو بعد أدائه الصلاة نجده يقيم الحفلات الراقصة والماجنة كما قدمه على أساس أنه خائن وغادر حتى لأقرب الناس فهو لايتورع عن قتل حتى أصدقائه دون أن يشعر بأي احساس بالذنب ، وفي محاولة من الفيلم لتعبئة المشاهد وشحنه بالحقد والكراهية .

فيلم «بوليرو» : اخراج جون ديريك . وتمثيل جورج كندي - بوديريك - اندريا كوهين .

خطورة فيلم بوليرو تأتي من خلال طرح الشخصية العربية في الفيلم من أنها شخصية مهزوزة نفسياً وسلوكياً وسيكولوجياً من الاعماق وانها لاتمثل في الواقع إلا هذا الانهزام.

وفيلم بوليرو اذ يتحدث عن هذه الشخصية العربية عبر المشاهد الأولية في الفيلم ويقدم العرب كمجموعة من قطاع الطرق تعيش في الصحراء ليس لها مكسب إلا بالنهب والسرقة والمجون في أكثر مجالات حياتها ويتزعم هذه المجموعة من الناس شخص قوي البنية معقد السلوك لايجد إلا الجنس والمجون لحل مشاكله الخاصة واسمه في الفيلم (الشيخ) واقحام هذه الشخصية في الفيلم نوع من الغباء والاستخفاف بعقل المشاهد فلا تظهر هذه الشخصية إلا في بداية الفيلم ولاتؤثر على مجريات الأمور في أحداث الفيلم .

لقد كان هناك دائماً في كل الأفلام المناهضة للشخصية العربية شخصية معينة يحرص عليها السينمائيون الغربيون حرصاً واضحاً . . وكانت هذه الشخصية هي شخصية العربي «تاجر العبيد» . . ان سلوك هذه الشخصية وتصرفاتها كلها أمور تجسدها لنا الأفلام الغربية وتوضح معالمها بشكل ظهر من خلال ممثلين لهم قدرتهم على تجسيد الشخصيات الكاريكاتورية ومن هولاء الانكيزي هاري أندروز في فيلم «ليزا»١٩٦١ والألماني بيتر لوري في «٥أسابيع في بالون»١٩٦٢ ، أو الممثل الروسي الأصل بيتر أوستينوف. الذي لعب شخصية تاجر العبيد سليمان في فيلم «أشانتي»١٩٧٩ للمخرج ريتشارد فلينشر.

فيلم «أشانتي»: تختفي زوجة دكتور جاء إلى افريقيا للتخفيف عن أهلها ويكتشف أن الذي خطفها هو - كما يزعم - تاجر عبيد عربي، ويستعين بالهليوكبتر ولكن رجال التاجر العربي يسقطون الطائرة ويقتل قائدها ثم يتعرف الزوج على شاب آخر يساعده في البحث عن زوجته

ولكنهم يعثرون عليها حيث يكون التاجر قد باعها إلى أمير عربي وبعد معركة دامية يتم تحرير الزوجة ويتم قتل التاجر العربي والأمير العربي

والفيلم لايكتفي باختلاق الأحداث . . ولكنه يجعل العرب في مواجهة مع هيئة الأمم المتحدة نفسها التي يمثلها في المناطق الأفريقية الدكتور دافيد وزوجته السوداء من أجل انقاذ الافريقي الاسود من الأمراض والأوبئة في نفس الوقت الذي يتسبب العرب في كل المآسي التي تصيب الافريقي .

ومن الأفلام التي حاولت تشويه الصراع العربي الصهيوني نذكر : فيلم «الأحد الأسود» : الفيلم مأخوذ عن قصة بذات الاسم للكاتب الامريكي توماس هاريس وقد اعتبرت هذه القصة في حينها واحدة من أفضل الكتب مبيعاً وانتشاراً في امريكا وقد ادعى الكاتب حينها بأنه تفرغ لكتابة القصة بعد سلسلة من الأبحاث والتي أجريت حول موضوعها مابين بيروت وفلسطين المحتلة وبعض الدول العربية إلا أن هذا الادعاء سرعان مايبدو هشاً من الاساس .

تبدأ أحداث الرواية والفيلم في بيروت - وبالمناسبة هناك فارق كبير مابين الكتاب والفيلم - الذي اختصر العديد من تفاصيل الأحداث للكتاب وخلفيات الأشخاص الرئيسيين فيها ، حيث مجموعة فدائية تخطط لعملية في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك بتفجير أحد الستادات الرياضية التي تتسع لمئات الألوف من البشر وحيث سيحضر رئيس الولايات المتحدة المباراة ، بذات المفهوم الديماغوجي المفضوح يحاول فيلم الأحد الأسود أن يبتز مشاعر الناس بمثل هذا التشويق الساذج ، فبالنسبة للفيلم ليس العرب والفلسطينيون بالذات إلا مجموعة من القتلة الذي يقتلون بدم بارد .

* * *